

العربية في ظل تحديات العولمة طغيان العامية وزهد الأبناء

أ.د. عبد القادر سلامي
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب واللغات/جامعة تلمسان - الجزائر

* ملخص

لسنا بحاجة إلى تأكيد حقيقة مفادها أنّ الحديث عن اللغة في ظل العولمة يفصح عن جانب هامّ ومصيري من حياة اللغة العربية. هذه اللغة التي لا يمكن أن تكتب لها الحياة ويدوم بقاؤها، مهما بلغت من الغنى، إلا باستعمالها وتداولها على ألسنة أهلها والناطقين بها، ووصل حاضرها بماضيها. ويلاحظ الدّارس حين ينظر في تراث العرب المصطلحي، أنّ العرب فاقوا غيرهم في العناية بلغتهم، إذ تعدّدت طرقهم المنهجية في هذا المجال حتّى كادت تستنفذ جميع الاحتمالات التي تقوم على تساوق اللغة مع الفكر، وإنّ لنا نتساءل عن زهد أبناء اللغة العربية الفصحى اليوم بلغتهم ما مفهومه؟ وما أسبابه؟ وما مظاهره؟ وما نتائجه وآثاره؟ وهو ما تسعى هذه الدراسة إلى كشف خطره المهدق بلغتنا العربية ومن جهة طغيان العاميات عليها.

أولاً: تقديم:

نستعرض في هذا التمهيد المصطلحات ذات الصلة بموضوع البحث، وهي: اللغة واللهجة والعلاقة بينهما، وما يعترى ذلك من تداخل بين اللغة واللسان والكلام.

1- تعريف اللغة:

هي "فَعْلَةٌ من لغوت، أي تكلمت، وأصلها: لُغُو. .. وقالوا فيها لغات ولُغُون... وقيل منها: لُغِيَ يَلُغِي: إذا هذى، ومصدره: اللُّغَا... وكذلك اللُّغُو، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللُّغُومِ﴾¹ كراماً²، أي بالباطل، وفي الحديث: (من قال يوم الجمعة: صَـة، فقد لغا)،³ أي تكلم".³

1 سورة الفرقان: الآية 72.

2 البخاري: صحيح البخاري، 6/2 والنسائي: سنن النسائي، 84/3.

3 ابن جني: الخصائص، 32/1.

- 1- أمّا حدّھا، فقد عرّفھا ابن جنی (ت392هـ) بقوله: "هي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم".¹ فأكدّ بذلك الطبيعة الصوتية للغة، ودلّ على أنّها ظاهرة اجتماعية، لا يتوقّر على إحداثها واضع معيّن، وإنّما نشأت بسبب حاجة الإنسان إلى التعبير والتفاهم مع بني جنسه.
- 2- أمّا عند المحدثين، فهي مجموعة من اللهجات التي تنتمي إلى بيئة معينة.²

2- تعريف اللهجة:

جاء في المقاييس: اللّام والهاء والجيم: أصل صحيح يدلّ على المثابرة على الشيء وملازمته، والأصل آخر يدلّ على اختلاط في الأمر. يقال: لهج بالشيء: إذا أعري به وثابر عليه وهو لهج. وقولهم: هو فصيح اللهجة، واللهجة: اللسان بما ينطق به من الكلام، وسميت لهجة؛ لأنّه كلّ يلهج بلغته وكلامه. والأصل الآخر قولهم: لهوَجْتُ عليه أمره: إذا خلطته.³

أما من حيث الاصطلاح، فاللهجة تسمّى العامية أو المنطوقة أو المحكية أو المحلية أو الدارجة، وهي "اللسان الذي يستعمله عامّة الناس مشافهة في حياتهم اليومية لقضاء حاجاتهم والتفاهم فيما بينهم".⁴ فهي اللهجة اليومية العفوية المكتسبة في السنوات الأولى للإنسان والتي يستعملها في تعاملاته العامّة، وتختلف من منطقة إلى أخرى في سائر البلدان.

واللهجة في الاصطلاح العلمي الحديث: مجموعة من الصفات اللغوية التي تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشارك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة.⁵

3- اللسان:

اللسن في اللسان العربي: جَوْدَةُ اللسان والفصاحة. واللسانُ واللسنُ: اللغة. يُقال: لكل قوم لسنٌ، أي لغة.⁶ وقرأ ناسٌ: ﴿وما أرسلنا

1 المصدر السابق، 33/1.

2 محيسن محمد سالم: المقتبس من اللهجات العربية والقرآنية، ص7.

3 ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، 215/5، مادة (لهج).

4 تاييف معروف: خصائص العربية وطرائق تدريسها، ص55.

5 محيسن محمد سالم: المقتبس من اللهجات العربية والقرآنية، ص7.

6 ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، 247/5، مادة (لسن).

من رَسُولٍ إِلَّا يَلْسَنُ قَوْمِهِ لِيَبَيِّنَ لَهُمْ¹ في قوله عز وجل: ﴿ وما أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيَبَيِّنَ لَهُمْ² 》. واللسان في الفرنسية بالمعنى نفسه. غير أن اللسان بمعنى اللغة يعدّ من باب الاستعمال المجازي المتفرّع عن دلالاته الحقيقية بالمعنى العضو المعروف في الفم سواء في ذلك العربية والفرنسية، والأمر لا يختلف في الإنجليزية بالنسبة لكلمة (tongue)³.

4- الكلام:

الكاف واللام والميم أصلان: أحدهما يدلّ على نُطْق مفهوم. والآخر على جراح. فالأوّل الكلام: وهو القول أو ما كان مكتفياً بنفسه. يقال: تكلم تكلماً وتكلّماً: تحدّث. ثمّ يتسعون فيسمّون اللفظة الواحدة المُقَهِّمة: كلمة، والقصة كلمة، والقصيدة بطولها كلمة اللفظة⁴. والكلام بعبارة اصطلاحية: هو اللغة المسموعة أو المنطوقة واللغة بهذا التحديد يمكن أن تطابق الكلام، بل هي كذلك من الوجهة اللغوية الحرفية، ففي الخصائص يدلّ ابن جنّي على أنّها من الأسماء الناقصة، وأصلها لغوة من لغا إذا تكلم، ولغا يلغولغوا تكلم وزنها فُعْلَةٌ لأنّ الأصل لُغَوَة⁵. وقد ورد في الحديث: (من قال يوم الجمعة صه فقد لغا)⁶ أي نطق وتكلم باطلاً، وعلى هذا فالكلام يمكن أن يكون ذا فائدة لغوية ويمكن أن يكون لغواً، أما اللغة فلا تكون كذلك إلا أخرجناها عن طبيعتها التواصلية.

والكلام (parole) بمفهومه الحديث هو ذلك النشاط الفردي الذي يقوم به المتكلم عندما يخرج اللغة من حيز الوجود بالقوة إلى حيز الوجود بالفعل، لإحداثه أصواتاً مسموعة مفيدة المعنى⁷. لقد كانت فكرة التفريق بين اللغة والكلام من أهم الأفكار التي ارتبطت باسم دي سوسير (De saussure) فقد رأى اللغة المعينة موجودة في كل دماغ على شكل معجم تقريباً وهي مشتركة بين الأفراد، في حين أن الكلام هو نشاط فردي. والفصل بين اللغة والكلام يعني

1 وهي من القراءات الشاذة، وهي قراءة أبي السمال، وأبي الجوزاء، وأبي عمران الجوني. ينظر: العكبري: إملاء ما من به الرحمن، 2/66.

2 سورة إبراهيم: الآية 4.

3 عبد الصبور شاهين: في علم اللغة العام، ص 23.

4 ينظر: ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، 5/131، مادة (كلم) والفيروزآبادي، القاموس المحيط، 4/174، مادة (الكلام).

5 ابن جنّي: الخصائص، 1/32.

6 البخاري: صحيح البخاري، 2/6 والنسائي: سنن النسائي، 3/84.

7 محمد يونس علي: وصف اللغة العربية دلاليًا، ص 56.

الفصل بين الاجتماعي والفردى وبين الجوهري والعرضي ، كما يعني الفصل بين ما هو كامن *potentiel* وما هو *actuel*.¹ ثانياً- علاقة اللغة باللهجة العامية:

هي علاقة بين العام والخاص؛ لأنّ اللغة تشتمل على عدّة لهجات لكلّ منها ما يميّزها، وجميع هذه اللهجات تشترك في مجموعة من الصفات اللغوية والعادات الكلامية التي تؤلّف لغة مستقلة عن غيرها من اللغات.²

ومما لا ريب فيه أنّ اللهجة متفرعة عن اللغة المشتركة ومتأثرة بها وإن كانت تشويهاً أو تحريفاً لها.³

وما ينبغي التنبيه إليه أنّ اللهجات العربية قديماً كانت قريبة من اللغة الفصحى في خصائصها ومميّزاتها بخلاف بعض الفوارق الصوتية مثل عنعنة تميم- التي تبدل فيها الهمزة عينا، وفحفة هذيل، بإبدال صوت الحاء عينا، وتثنية بهراء بكسر حرف المضارعة وغيرها⁴ وحينئذ أمكن تسمية اللهجة لغة. ومما يؤكد فصاحتها مثلاً أن الحسن قال يوماً لبعض جلسائه: توضيت. بتحويل الهمزة "ياء" فقيل له: أتلحن يا أبا سعيد؟ فقال: إنها لغة هذيل.⁵ وقال ابن جني في الجناوة*: الجواة والجياة والحياءة ثم قال: ترك الهمز لغة هذيل.⁶ فورود القرآن بلهجتهم يعدّ توثيقاً لها، وتأييداً. أما قراءة الجمهور فهي على اللغة المشهورة. وبهذا يكون الكتاب الكريم مرآة تجد فيه كل قبيلة بيانها ولسانها، مصداقاً لقوله قوله ﷺ: (نزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف، فاقروا كيف شئتم) وإنما التأويل الواضح، في رأي ابن قتيبة (ت376هـ)، أن معنى الأحرف في الحديث هو اللهجات، أي ما درج القدماء على تسمية باللغات، ذكر ذلك بعد عرض لتأويلات واختلاف اللغويين والنجاة بشأنها.⁷

1 المصدر السابق نفسه

2 محيسن محمد سالم: المقتبس من اللهجات العربية والقرآنية، ص7

3 صبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة، ص360.

4 وقد سماها ابن فارس: «اللغات المذمومة»: الصاحبي في فقه اللغة، ص56-57. وينظر: عبد القادر عبد الجليل: الأصوات اللغوية، ص132-133-135، ومصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، 1/142.

5 مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، 1/240

* قال أبو عبيد (ت244هـ): «الجناوة: الشيء يوضع عليه القندران كان جلدًا أو غيره، وهي الجناوة والجواة: ابن

سيده: المخصص، 5/54

6 المصدر السابق نفسه.

7 ينظر: ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، ص33-34 ويوازن بما جاء في صبحي الصالح: مباحث في علوم

القرآن، ص104-106.

غير أنه بمرور الزمن واختلاط العرب بغيرهم من الأعاجم، نتجت لهجات أخرى ضمت كلمات فصيحة وأخرى معربة وثالثة دخيلة، مما وسع الهوة بين اللغة الفصحى واللهجة، وتعدّر تسمية الثانية بالأولى، وأصبحت أقرب إلى العامية منها إلى الفصحى. وكلما تقدّما في الزمن اقتربت العامية من الدارجة وابتعدت عن الفصحى، واستحال تسمية كليهما باللغة لافتقادهما لخصائص العربية وتمييزهما بخصائص أخرى. فهل معنى ذلك أن "العامية أصبحت هي القاعدة بينما العربية مجرد استثناء. والعامية المحلية في كل دولة عربية هي المستخدمة في الشارع والإعلام ومراكز البحث العلمي، بل وفي أقسام اللغة العربية نفسها في الجامعات؟"¹

إنّ "مثل هذا التعميم لا يمكن أن يؤخذ مأخذ الجد والعلمية، إذ أنه من نافلة القول إنّ لكل نمط من أنماط العربية الفصحى والعاميات مجاله ووظيفته ووقته، لكل مقام مقال، إذ أن الازدواجية اللغوية (diglossia) من السمات الرئيسية والضاغطة في اللغة العربية"²، الأمر الذي قد يحملنا على الإقرار بأنّه بات "من الجليّ أنّ الفجوة ما بين اللغة الأدبية هذه، واللهجات تضيق باستمرار من جرّاء انخفاض نسبة الأمية في العالم العربي، جيلاً إثر جيل، وتأثير العولمة* في إيقاظ العوربة"³. لذا وجب الاعتراف بأنّ النمط العامي للغة العربية، أي اللهجات العربية، وما أكثرها في عالمنا العربي مترامي الأطراف، هو لغة الحياة، لغة الشارع، لغة البيت، لغة العامل مع أخيه العامل، المريض مع طبيبه، الفلاح مع الفلاح، الوالد والوالدة مع أبناء أسرتهما، لغة الشعر العامي وهلم جرّاً. بعبارة وجيزة، العامية هي لغة كل شيء تلقائي طبيعي. فهي لغة أمّ كل عربي، يرضعها مع حليب أمّه، إنها ملكة راسخة كما قال ابن خلدون (ت808هـ).⁴ أما اللغة

1 ينظر: إبراهيم الجندى: اللغة العامية واللهجة العربية، ص 24.

2 حسيب شحادة: اللغة العربية واللهجة العامية، موقع متبر دنيا الوطن الإلكتروني.

* يمكن تعريف العولمة (Globalization)، بأنها تعميم نمط من الأنماط الفكرية والسياسية والاقتصادية على نطاق العالم كله. ولأن الدعوة إلى العولمة، ولدت في الولايات المتحدة، فمن المفترض نظرياً أنها تعني الدعوة إلى تبني النموذج الأمريكي في الاقتصاد والسياسة وفي طريقة الحياة بشكل عام، ومن ضمنها الثقافة والفكر والإعلام. كمال بشر: اللغة العربية بين العوربة والعولمة، ص 42.

* العوربة مصطلح حديث استخدمه بعض الكتاب والمفكرين العرب في مقابل (العولمة) ويعنون به نمط الحياة العربية، فكرية كانت أو سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية. فهو مصطلح ذو خصوصية في مقابل عمومية المصطلح (العولمة). المصدر السابق.

3 حسيب شحادة: اللغة العربية واللهجة العامية، موقع متبر دنيا الوطن الإلكتروني.

4 ابن خلدون: المقدمة، ص 344. فصل (في أن اللغة ملكة صناعية).

العربية الأدبية الحديثة والمعروفة في الغرب باسم (Modern Standard Arabic, MSA)، فهي مكتسبة ضمن الأطر التعليمية الرسمية المعروفة أو غير الرسمية، ولها مجالها ووظيفتها في الإعلام المقروء والمسموع والمكتوب، وفي الأدب الرفيع والعلوم والمناسبات الرسمية، والتي تظل لغة موحدة وموحدة لكل العرب (رغم نسبة الأمية العالية التي ما برحت متفشية في العديد من البلدان العربية، لا سيما بين الإناث، عماد بناء المستقبل، علماً بأنّ الفهم شيء والقراءة والكتابة مهارتان أخريان)، على الرغم وجود بعض الاختلافات الطفيفة صوتياً (فونيتيقياً) ومعجمياً (دلالياً) بين هذا القطر وذاك، مثل الجيم المصرية، يقال في المشرق العربي: أعمال، بركة سباحة، عصر اليوم، لعبة كرة القدم، رئيس الوزراء، الزراعة في حين يستخدم المغرب العربي عادة: أشغال، مسبح، زوال اليوم، مقابلة كرة القدم، الوزير الأول، الفلاحة على التوالي: في النطق العربي الفصح هناك صوت القاف اللهوي كان مجهوراً (voiced) قديماً وغداً مهموساً (voiceless) حديثاً، أما في اللهجات فتقابلة عدة أصوات مثل الهمزة، الغين، الجيم، الصوت المركّب (diphthong) دز، الكاف¹ في العربية الفصحى نقول مثلاً "الآن" في حين تستعمل العاميات العربية أكثر من عشر كلمات للتعبير عن نفس هذا المفهوم مثل: إسا، هسا، هسعايات هلاً، هلق، هلكيت، هلثيت، هلحين، دي الوقت، تواء، دابا. العاميات مفرقة ومفرقة، إن اللغة المحكية بطبيعتها الانفعالية عرضة للتغير السريع أما اللغة المكتوبة فتتسم بالثبات على حالها والتمسك بالتقاليد.² هذا، ولئن لقيت اللغة العربية من الدراسة والبحث ما أهله لبناء أساس صلد متين من القواعد، يواجه أيّ تصدّع في اللسان؛ فلمّا نزل القرآن الكريم، ودخل الإسلام غير العرب، واختلطت الألسنة الأعجمية بالعربية، بدأ داء اللحن يدبّ إلى السنة العوام، ثمّ انتقل إلى بعض الخواص، ولكنّ الأدهى والأمرّ هو وصوله إلى قراءة القرآن الكريم، مما عزّز مبدأ تنقية اللغة العربية من اللحن وجعل حركة التأليف فيه تنشط، لحماية ما بقي فصيحاً سليماً من السنة العرب أُلجبر ما يمكن جبره، فخصّ كلّ عالم كتاباً للحن أهل بلده، ليقوم ألسنتهم ويصوبها سواء تقدّم عهداً أو تأخّر.

1. ينظر مثلاً: مجلة الفكر العربي تموز-أيلول/يوليو - سبتمبر 1990م، العدد 61، ص. 11 حول اللغة العربية وإشكالات المعاصرة ص. 99.

2. ينظر: جوزيف فندريس: اللغة، ص. 182-183.

أما دارسو الإعجاز والبلاغة والنقد، فقد أفادوا من الدراسة الصوتية عند اللغويين، ووجهوا خطاهم نحو تأليف حروف الكلمة بحسب المخارج الصوتية، وماله من دور في حسن التلقظ وفصاحته أو سوءه وعدم فصاحته. فقد عُرِضَتْ على الخليفة المتوكل جارية شاعرة، فقال أبو العيْناء (ت283هـ) يستجيزها: أحمد الله كثيراً، فقالت: حيث أنشأك ضريراً، فقال يا أمير المؤمنين: قد أحسنت في إساءتها فاشترها.¹

وقال ثعلب (ت291هـ) في أول فصيحته: "هذا كتاب اختيار الفصيح ممّا يجري في كلام الناس وكتبهم، فمنه ما فيه لغة واحدة، والناس على خلافها، فأخبرنا بصواب ذلك، ومنه ما فيه لغتان وثلاث وأكثر من ذلك، فاخترنا أفصحهنّ، ومنه ما فيه لغتان وكثرتا واستعملتا فلم تكن إحداهما أكثر من الأخرى، فأخبرنا بهما.² فال مفهوم من كلامه أن مدار الفصاحة في الكلمة هو كثرة استعمال العرب لها. ويدعم هذا المفهوم ما جاء في طبقات النحويين واللغويين: "قال ابن نوفل: سمعت أبي يقول لأبي عمرو بن العلاء (ت154هـ): "أخبرني عمّا وصفت ممّا سميت عربية، أي دخل فيه كلام العرب كله؟ فقال: لا. قلت: كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة؟ فقال: أحمل على الأكثر، واسمّي ما خالفني لغات."³

وبما أن اللغة العربية هي همزة الوصل بين أفراد المجتمع العربي، وبها يتمّ التواصل بين فئاته كلّها أصبح من الواجب الناطقين بها احترام ضوابطها وقواعدها، أو ما يسمى بالمقياس الصوابي، الذي يعرف بأنّه معيار لغوي يرضى عن الصواب ويرفض الخطأ في الاستعمال، وهو كالصوغ القياسي لا يمكن النظر إليه باعتباره فكرة يستعين الباحث بوساطتها في تحديد الصواب من الخطأ اللغويين، وكما أنّه مقياس اجتماعي يفرضه المجتمع اللغوي على الأفراد، ويرجع الأفراد إليه عند الاحتكام في الاستعمال،⁴ وبمعنى آخر: "هو معيار لغوي يكتسب شرعيته من الشئوع في الاستعمال"،⁵ الأمر الذي يوقفنا على مدى إدراك السلف لمبدأ الصواب قبل مبدأ الخطأ في اللفظ والعبارة، بما يزيد من انحسار العربية من التداول عند بعض الخاصّة من الخلف

1 الأبيشي: المستطرف من كل فن مستظرف، ص68

2 ثعلب: الفصيح، ص45

* اللغات: تعني اللهجات في عرف القدماء. ينظر: ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، 5/255-256، مادة (لغو).

3 الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص35

4 ينظر: تمام حسان: اللغة بين المعيارية والوصفية، ص61

5 ماجد الصايغ: الأخطاء الشائعة وأثرها في تطور اللغة العربية، ص40

بله العامة، ويفتح المجال أمام احتمالات العجمة في السنة العامة ويفتح المجال واسعاً أمام الأخذ بما في أيدي الأعاجم دون إدراك لوجود النظائر في لغة العرب، من تلغى بذلك المفاضلة (لا قدر الله) التي بين المجتهد والمقصر التي قال يحيى بن خالد (ت129هـ) إقراراً بجدواها: "ما رأيت رجلاً قط إلا هيئه حتى يتكلم، فإن كان فصيحاً عظم في صدري، وإن قصر سقط من عيني".¹

هذا، ولئن أراد الإنسان أن يتكلم بلغة أولهجة غير لغته أولهجته، وجب عليهما يتعلم مستواها الصوابي، من أصوات، ومفردات وصيغ، وطرق تركيب جمل، ونبر* وتنغيم*، وإشارات باليدين والوجه أثناء الكلام، وطرق استجابة لما يسمع؛²

ثالثاً- زهد الأبناء بين الواقع والأسباب:

1 المصدر السابق، ص67

*النبر: أو الارتكاز أو الضغط وهو درجة قوة النفس التي ينطق بها صوت أو مقطع. فدرجة قوة النفس في نطق الأصوات والمقاطع المختلفة تتفاوت تفاوتاً بيناً. فالصوت أو المقطع الذي ينطق بارتكاز أكبر يتضمن طاقة أعظم نسبياً ويتطلب من أعضاء النطق الخاصة جهداً أقوى بالإضافة إلى زيادة النفس. وعلى هذا فالنبر ينقسم إلى أولي (قوي) و(ضعيف) وثانوي. (ينظر: محمد السعران: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، ص189-190 وتمام حسان: مناهج البحث في اللغة، ص194-197 و: كارل بروكلمان: فقه اللغات السامية، ص474-475 وبرجستراسر: التطور النحوي للغة العربية، ص71-73). وعلى الرغم من أن اللغويين القدماء لم يدركوا النبر لبعض الضغط على مقاطع الكلام، (ينظر: أمينة بن مالك: ظاهرة التنغيم في البحث الصوتي بين القديم والحديث العدد2، ص35) فإن بعضهم لاحظ أثره في تطويل بعض حركات الكلام وهو ما عالج ابن جني بعض أمثلته ضمن (باب مطلق الحركات)، فقال: «وحكى القراء عنهم: «أكلت لحم شاة» أراد لحم شاة فمطلق الفتحة، فأنشأ عنها ألفاء. ابن جني: الخصائص، 3/123

*التنغيم: هو المصطلح الصوتي الدال على الارتفاع (الصعود) والانخفاض (الهبوط) في درجة الجهر في الكلام. وهذا التغير في الدرجة يرجع إلى التغير في نسبة ذبذبة الوترين الصوتيين التي تحدث نغمة موسيقية. ولذا، فالتنغيم يدل على العنصر الموسيقي في الكلام يدل على لحنه. على أن الفرق بين «النغمة» و«اللحن» هو أن النغمة يتصف بها مقطع من المقاطع، فيوصف من إحدى الكلمات بأنه ينطق بنغمة صاعدة، وذلك بأن ينطق بنغمة «هابطة» أو «مستوية». أما اللحن، فهو ما ينشأ عن ترتيب النغمات المتتابعة في المجموعة الكلامية. (ينظر: محمود السعران: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، ص192 وينظر: برجستراسر: التطور النحوي للغة العربية، ص71-73 وتمام حسان: مناهج البحث في اللغة، ص204-198). وقد بين الجاحظ فوائد التنغيم وهو يشير إلى قوة صوت العباس بن عبد المطلب وارتفاعه وجهارته في عملية التوصيل، فقال: «وقد كان العباس بن عبد المطلب (ت32هـ) جهيراً (أي: ذا منظر وهيئة حسنة. ينظر: الفيروزآبادي: القاموس المحيط، 1/409، مادة (الجهن)، جهير الصوت، وقد مدح بذلك، وقد نفع الله المسلمين بجهارة صوته يوم خيبر حين ذهب الناس عن رسول الله ﷺ، فنادى العباس: يا أصحاب سورة البقرة، هذا رسول الله. فراجع القوم وأنزل الله عز وجل النص وأتى بالفتح. (ينظر: الجاحظ: البيان والتبيين، 1/123). ويتضح مما سبق أن التنغيم وثيق الصلة بالنبر، إلا أن الفرق بينهما يكمن في أن النبر ضغط على الكلمة المفردة أو في سياقها في حين أن التنغيم تشكيل صوتي للجمل أو العبارة كلها. والرابط بين التنغيم والنبر يكمن في أن النبر، وإن كان ضغطاً على مقطع من مقاطع الكلمة، فإن حصيلة ذلك تشكيل (التنغيم). ولذا فإن مصطلح «التنغيم» يطلق من باب المجاز والتجاوز على «النبر» وعلى كل ظاهرة صوتية تشكل من مجموعها ما يسمى بموسيقى الكلام كالسكته والوقفة وغيرها. ينظر: أمينة بن مالك: ظاهرة التنغيم في البحث الصوتي بين القديم والحديث، ص33 وما روي: علم اللغة، ص93

2 تمام حسان: اللغة بين المعيارية والوصفية، ص61.

تقحم "عولمة" الغرب نفسها اليوم في كل مجال من حياة الناس العامة والخاصة، فهي عولمة استبدادية تتقي وجود الآخرين أفراداً كانوا أم جماعات وما كانت تقبل بهم إلا أذناناً وإمعات، ؟ فهل عند العرب شيء يستطيعون به اقتحام العولمة الغربية أو وضع معلم على الدرب تستطيع به أجيالنا القادمة أن ترى فيه إثباتاً لوجودنا الذي كان الغرب يعمل على تغييبه دائماً؟

إن لدى العرب خصوصاً والمسلمين عموماً شيء يستطيعون به فرض وجودهم على كلا الشرق والغرب، ذلك الشيء هو الإسلام واللغة العربية- لغة القرآن الكريم. لا يوجد شيء يشترك به مسلمو العالم جميعاً غير القرآن الكريم، ولا يوجد شيء يشترك به القرآن جميع المسلمين في العالم سوى اللغة العربية، إذ لا إسلام بلا قرآن، ولا قرآن بلا لغة عربية. أفلا تكون اللغة العربية القاسم المشترك بين جميع المسلمين في العالم؟ أو لا تستحق اللغة العربية أن تكون من أوائل ما يستحق العولمة الاختيارية.¹

إن الحديث عن نفور الشباب العربي من تعلم لغته وإقباله لتعلم لغات أجنبية كالإنجليزية والفرنسية والألمانية من جهة،² يعدّ في نظر بعض الدارسين المحدثين ادّعاء باطلاً في حقّ أبناء العروبة، وإن كان له ما يُبرّره خارج إطار اللغة إذ "الأمر يعود في الأساس إلى أسباب وظروف غير لغوية مثل الوسائل التقليدية البالية في تدريس العربية، حيث التلقين والبصم دون الفهم سيّدا الموقف، وقل الشيء نفسه بصدد جل الكتب والمناهج المدرسية.³ أضف إلى ذلك أن الواقع العلمي الراهن يحتم على طالب العلم الطموح السيطرة على إحدى اللغات العالمية أنفة الذكر على الأقل. غني عن القول أن من لا يحترم لغته، لغة الأم، ويحاول بهذه التمكن منها على أفضل صورة ممكنة فسيغتري هويته القومية وكيانه النقص والوهن. في هذا الشأن ذهب عميد الأدب العربي الراحل طه حسين بعيداً حين قال "إن المتقنين العرب الذين لم يتقنوا معرفة لغتهم ليسوا ناقصي الثقافة فحسب، بل في رجولتهم نقص كبير ومُهين أيضاً".⁴

1 ينظر: محمد إسماعيل بطرش: عولمة اللغة العربية، موقع الجمعية الدولية للمترجمين واللغويين الإلكتروني.

2 ينظر: إبراهيم الجندي: اللغة العامية واللهجة العربية، ص 24

3 مهدي المخزومي: في النحو العربي قواعد وتطبيق على المنهج العلمي الحديث، القاهرة 1966م، ص 20

4 حسيب شحادة: اللغة العربية واللهجة العامية بتاريخ 2007/09/12م بموقع منبر دنيا الوطن الإلكتروني.

لا بدّ من الإقرار بأنّ هناك قواعد خاصة باللغة العربية الأدبية ولا بد من مراعاتها عند استعمال هذا النمط اللغوي.¹ كما أن هناك قواعد خاصة باللهجات العامية ينبغي التقيد بها عند التكلم. لا بد من احترام الصوابية الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية وكبح جماح التخلص من التقليد اللغوي العريق، وإلا أصبحت اللغة مشاعاً وفوضى دون ضوابط وفي "حيص بيص". وهناك شعوب كثيرة تولي لغاتها أهمية واحتراماً بالغين كالفرنسيين الذين لا يزالون يرددون عبارة تتمّ عن التقرّز إزاء خطأ إملائي تقع فيه خادمة وضيعة (Avoir une orthographe d'une cuisinière). وقد صدر في فرنسا في أعقاب ثورة 1830م قانون يحتم على الفرنسي معرفة الإملاء السليم بغية الحصول على وظيفة عامة في البلاد.² وهناك العديد من الدول الراقية في العالم الغربي التي تشترط على الأجنبي إثبات القدرة اللغوية للغاتها عند التقدم بطلب الحصول على التجنيس الجديد. وفي مثل هذه الدول أيضاً يتوجب على عامل النظافة، على سبيل المثال، أن يتحلى بقدر كاف من المعرفة اللغوية، لا سيما مهارة التكلم ليندرج في قائمة من يستحق الانخراط في العمل. وإزاء هذا الوضع يجد المرء أن الأستاذ الجامعي المتقن للغة أجنبية معينة مثل العربية والعبرية والروسية، وغيرها، غير مرغى على امتلاك ناصية لغة اختصاصه كتابةً وحديثاً ويكتفون، في الغالب الأعم، بمعرفة القراءة "العينية" لا الصوتية والقيام بعملية روتينية تسمى الترجمة. وكل من اكتسب مهارة في هذا المجال يعرف يقيناً مدى سهولة نقل محتوى لغة الأصل (origin language) إلى لغة الهدف (target language) وهي دائماً تقريباً لغة أم الناقل. إذاً لا حاجة ماسة لهذا الناقل لمعرفة أسرار اللغة المنقول منها والتمكن منها عملياً، بل إن الجانب النظري كاف لهذا الغرض.³

1 نحو لغة عربية سليمة، مجموعة مقالات كتبت بمناسبة صدور قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية، بغداد، 1978م

2 عبد الفتاح الزين: قضايا لغوية في ضوء الألسنية، ص 72

3 حسيب شحادة: اللغة العربية واللهجة العامية بتاريخ 2007/09/12م بموقع منبر دنيا الوطن الإلكتروني

* خاتمة:

إنَّ ربط اللهجات والعاميات العربية، وقد اختزل فيها التفريغ تباعاً بواقع الاستعمال اللغوي، لا يغلي في المقابل طفولات تلك اللهجات في قليل أو كثير، بل ويجعل فكرة التنازل الطوعي بل المشروط عند المتكلمين بها لبعث لغة مشتركة أمراً مستبعداً إن لم يكن مستحيلاً، الأمر الذي لا يعدم أمر تداخلها عند هذا الحيّ أوداك لأغراض نفعية مؤقتة قد لا يرتضيها الذوق الاجتماعي المرتبط ببيئاتها، فلم يتيسر لها الحال هذه ما تيسر للغة العربية المشتركة التي جنحت إلى اختزال التفريغ في مراحل تطورها بعد أن أفادت من أغلب اللهجات المكونة لها في أساليب شفوية ورمزية مطبوعة بالسليقة الفردية والجماعية، الأمر الذي يؤهلها وأهلها لأن تكون لغة مشتركة حاملة لأسباب تجددتها، على الرغم مما يعوق مسارها في التداول والاستعمال، وما عداها لهجات، قد يسهل ردها بلطف الصنعة إليها على الرغم مما هبئ لها ويهيأ لها من أسباب الذبوع والتجديد المرتبطين بطبيعتها والخارجين عن طبيعتها، الأمر الذي يستدعي اختلافاً منهجياً في دراسة كل من اللغة واللهجة وتحليلهما وفق خصوصية كل منهما وما تمليه طبيعة الثبات والتحول فيهما، الأمر الذي يحول في رأينا دون ترشيح أي من اللهجات الحديثة لخلافة اللغة المشتركة لما تحقق أو قد يتحقق لها من الانتشار في الوطن العربي واقعاً، على النحو الذي قدّم رائد الدرس اللغوي العربي الحديث إبراهيم أنيس في كتابه في اللهجات العربية حول اللهجة القاهرية.¹

ولئن كان الأعراب يعتزّون ويفتخرون بأنهم قادرون على تفكيك مغالق الأمور، قراءة نصوص مكتوبة خالية من النقط والشكل. وإذا أدخلت النقط عدّها ذلك البدوي القحّ، مالك ناصية العربية بالسليقة، إهانة له ما بعدها إهانة ومذلة. سبحان مغير الأحوال، فنحن في عصر العولمة هذه علينا أن نفهم أولاً لكي نحاول أن نقرأ بشكل سليم ثانياً. فما بال العربي يتكلم ويفكر بلهجة عامية لا يكتبها ويكتب بلغة لا يتكلمها، إنه يفهم الفصحى بشكل مريض إلا أنه يستصعب قراءتها والتعبير بها بشكل سليم وجميل؟!، وهو تعذّر يدعو لعمرى إلى الأسف.

¹ ينظر: إبراهيم أنيس: في اللهجات العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، المطبعة الفنية الحديثة، ط3، القاهرة، 1965م، ص71.

المصادر والمراجع:

*** القرآن الكريم.

- * الأشيقي، المستطرف من كل فن مستظرف، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، دار القلم، بيروت، لبنان.
- * ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، ط2 مصورة، بيروت، 1950م.
- * ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة، منشورات دار مكتبة الهلال، بيروت.
- * ابن سيده، أبو الحسن علي: المخصص، المطبعة الأميرية، بولاق، القاهرة، 1317هـ-1321هـ.
- * ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكريا:
- الصلحي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، ط1/1414هـ-1993م.
- معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون دار الفكر.
- * ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم: تأويل مشكل القرآن، شرح السيد احمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1401 هـ - 1981 م
- * ابن مالك، أمينة: ظاهرة التنغيم في البحث الصوتي بين القديم والحديث، ضمن الآداب - مجلة فكرية تصدر عن معهد الآداب واللغة العربية بجامعة قسنطينة، الجزائر، 1416هـ-1995م، العدد2.
- * باي، ماريو: علم اللغة، ترجمة وتعليق أحمد مختار عمر، ط2، القاهرة، 1983م.
- * البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، مطابع الشعب، القاهرة، 1378م.
- * برجستراسر: التطور النحوي للغة العربية، محاضرات ألقاها في الجامعة المصرية، سنة1929م، أخرجه وصححه وعلق عليه رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض، 1402هـ-1982م.
- * بشر، كمال: اللغة العربية بين العصرية والعولمة، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، العدد 96.
- * بروكلمان، كارل: فقه اللغات السامية، ترجمة عن الألمانية رمضان عبد التواب، جامعة عين شمس، 1397هـ-1977م.
- * بطرش، محمد إسناعل: عولمة اللغة العربية، ضمن منتديات واتا الحضارية بتاريخ 2008/01/16، موقع الجمعية الدولية للمترجمين واللغويين الإلكتروني.
- * ثعلب، أبو العباس: الفصح، تحقيق صبيح التميمي، دار الشهاب، بאתة، الجزائر، 1979م.
- * الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، مكتبة المتنى ببغداد.
- * الجندي، إبراهيم: اللغة العامية واللهجة العربية، الصحيفة العربية الأسبوعية "بيروت تايمز" الصادرة في لوس أنجلوس بأمريكا، العدد 952، الخميس 25 نوفمبر - 2 ديسمبر 2005م.
- * حسان، تمام:
- اللغة بين المعيارية والوصفية، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1992م.
- مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1400هـ-1979م.
- * الراجعي، مصطفى صادق: تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1394هـ-1974م.
- * الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن: طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار المعارف، القاهرة، 1954 م.
- * الزين، عبد الفتاح: قضايا لغوية في ضوء الأسنوية، بيروت 1987م.
- إبراهيم، إبراهيم: في اللهجات العربية، القاهرة، 1952م.
- * السمران، محمد: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.

- *شاهين، عبد الصبور: في علم اللغة العام، مديرية الكتب والمطبوعات بجامعة حلب، 1981م - 1982م.
- * شحادة، حسيب: اللغة العربية واللهجة العامية، تعليق على اللغة العامية واللهجة العربية، بتاريخ 2007/09/12م بموقع منبر دنيا الوطن الإلكتروني.
- * الصالح، صبحي:
- دراسات في فقه اللغة، ط5، دار العلم للملايين، بيروت، 1983م.
 - مباحث في علوم القرآن، ط14، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1982م،
 - * الصايغ، ماجد: الأخطاء الشائعة وأثرها في تطور اللغة العربية، إشراف عفيف دمشقية، ط1، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1990م
 - * عبد الجليل، عبد القادر: الأصوات اللغوية، دار الصفاء للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 1998م.
 - * العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله: إملاء ما من به الرحمن من وجوه - الإعراب والقراءات في جميع القرآن، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1399هـ - 1979م.
 - * فندريس، جوزيف: اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد قصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، 1950م.
 - * الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، دار الجيل، بيروت.
 - * مجلة الفكر العربي، مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية، تموز - أيلول/يوليو - سبتمبر 1990م، العدد 61.
 - * محمد يونس علي: وصف اللغة العربية دلاليًا، منشورات جامعة الفاتح، 1993م.
 - * محيسن محمد سالم: المقتبس من اللهجات العربية والقرائية، ط1، مكتبة القاهرة، 1978م.
 - * المخزومي، مهدي: في النحو العربي قواعد وتطبيق على المنهج العلمي الحديث، القاهرة، 1966م.
 - * معروف، نايف: خصائص العربية وطرائق تدريسها، دار النفائس، ط1، 1985م.
 - * النسائي، أبو عبد الله عبد الرحمن بن شعيب: سنن النسائي (ومعه زهر الربي على المجتبى لجلال الدين بن عبد الرحمن السيوطي)، مطبعة البابي الحلبي، مصر، 1964-1965م.
 - * نحولغة عربية سليمة، مجموعة مقالات كتبت بمناسبة صدور قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية، بغداد، 1978م.

المستويات اللغوية وأثرها في التغير الدلالي معجم أساس البلاغة تطبيقاً

قاسم قادة

أستاذ مساعد مكلف بالدروس

المركز الجامعي تيسمسيلت

الملخص:

(قد يعتقد الكثير من قراء المعاجم العربية القديمة أن دلالة المدخل المعجمي لا تتجاوز عملية الشرح والتفسير وفق الكيفية التي سطر لها صاحبها دون الخروج إلى فضاءات أخرى، إلا أن المطالع للألفاظ المشروحة يقف على حقيقة مفادها أن دلالتها تتضح أكثر حينما يخرج صاحب المعجم باللفظ - كلما استدعى الأمر - إلى الوقوف ملياً عند ما يعرف في واقع اللسانيات الحديثة بالمستويات اللغوية، وهو ما سعيته إلى تتبعه في معجم أساس البلاغة للزمخشري، وذلك بغية إثبات أن صاحبنا كان على وعي من أن الدلالة اللفظية لبعض من الألفاظ تؤكد جوانب صوتية أو صرفية أو نحوية.)

كثيرة هي القراءات الفاحصة والدراسات المعمّقة للمعاجم العربية القديمة التي تتبعت منهجها وطريقتها في عرض المادة، وهذا من باب الأخذ بيد القارئ وتعريفه بمنهج بنائها حتى لا تضيع به السبل أثناء البحث فيها، كما أن هناك ثمة دراسات معجمية توغلت في كنه المادة وراحت تفسر طبيعتها الدلالية، ومن المنظور الثاني سأعالج بحثي الذي سأقتصر فيه على تتبع المستويات اللغوية الواردة في معجم أساس البلاغة مكتفياً ببعض النماذج الواردة فيه، وقد يسأل القارئ ذاته لماذا البحث في هذا المجال - المستويات اللغوية - علماً أن المدونة المبحوث فيها هي معجم لغوي ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال إذا كانت بالإيجاب، فهي بمثابة إقرار واعتراف من أن الزمخشري في معجمه، وهو يتتبع دلالة المدخل المعجمي الواحد كان على دراية من أن بعض الألفاظ أثناء شرحه لها إذا ما عقب عليها بشيء من التحليل الصوتي أو الصرفي أو النحوي انضحت دلالتها أكثر، فهو حينما يخرج بها إلى فضاءات أخرى يكون بذلك قد بلغ عن دلالاتها من زوايا لها علاقة بالحقل

اللُّغوي الواسع، وهوما يُعبّر عنه في الدرس اللُّغوي الحديث بالمستويات اللغوية التي وقفت على أشهرها:

أ- المستوى الصوتي:

يُقرُّ بعض الدارسين لمعجم أساس البلاغة أن الزمخشري ونتيجة اهتمامه بجمع المادة اللغوية المعبرة عن الجانب البلاغي نجده «لا يهتم بهذا النوع من الدراسة، ومثله من المعاجم الأخرى الصحاح للجوهري والقاموس المحيط لمجد الدين الفيروز أبادي الشيرازي، فهذه المعاجم لا تشير بشيء إلى طريقة العرب في تُطق أصواتها»⁽¹⁾، إنَّ مثل هذه الأحكام في الحقيقة إذا كان يقصد صاحبها النقي القطعي لما له علاقة بالمستوى الصوتي فإنه يُمكن للقارئ المتأنّي أن يقف على عكس ما ذهب إليه حكمت كشلي فواز، وهوما يتجلى بوضوح في باب الهمزة حيث تعرّض للحرف بشيء من الاستفاضة في دراسته الصوتية. . حدد. ..

وفي ثنايا بحثنا وقراءتنا للمعجم استوقفنا بعض الظواهر الصوتية التي تعرّض لها الزمخشري في شرحه المجازي باعتبار أن «ألفاظ اللغة العربية لا تعيش منعزلة بل تجتمع وتشتبك في روابط مشتركة تربطها وتصل بينهما، ولكل كلمة جسم وروح: فجسمها هو المادة الصوتية، التي تتكون منها، والشكل الذي تجعل فيه تلك المادة أو البناء الذي تبنى عليه وروحها هو معناها»⁽²⁾، منها على سبيل التمثيل مادة (حنث): «ومن المجاز: بلغ الغلام الحنث ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾»⁽³⁾ وهو الذنب، استعير من حنث الحانث الذي هو نقيض برّه، وهو يتحنث من القبيح: يتحرّج ويتأثم، "وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتحنث بحراء «أي: يتعبّد ويتأثم، وقالوا تحنّث بصلتك وبرك، ويجوز أن تعاقب الناء الفاء من التَّحْنُفِ»⁽⁴⁾.

إن إشارته إلى إمكانية تداخل الناء مع الفاء له ما يفسره صوّتياً، فالْتَحْنُثُ يؤول إلى التَّحْنُفِ وهوما توصلت إلى تأكيده الدراسات الصوتية الحديثة، «فالفاء» و«الناء» صوتان احتكاكيان فيهما «يضيق مجرى الهواء الخارجي من الرئتين في موضع من المواضع بحيث

1 - حكمت كشلي فواز، القاموس المحيط للفيروز أبادي، دراسة وتحليل ونقد، دار الكتب العلمية بيروت ط1، 1996 م، ص38.

2 - فرحات عياش، الاشتقاق ودوره في نمواً للغة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1995 م، ص135.

3 - سورة الواقعة، الآية 46.

4 - الزمخشري، أساس البلاغة، ص144.

يحدث للهواء في خروجه احتكاكاً مسموعاً، والصوامت العربية التي يصدق عليها هذا الوصف هي:

المهموس	المجهور
ف	-
ث	ذ
-	ظ
س	ز
ص	- «(1)

إنَّ إمكانية تأويل «التَّحْنُثْ»، حسب رأي الزمخشري من الناحية الصوتية لا يمكن تفسيره إلا بالتقارب القائم بين الحرفين من حيث المخارج، فيسهل التبادل بينهما فالفاء يحدث نتيجة «ضغط الشفة السفلى على الأسنان العليا بحيث يسمح للهواء أن يشق طريقه بينهما وخلال الثنايا، يرفع الحنك اللين، فلا يمر الهواء خلال الأنف، ولا يتذبذب الوتران الصوتيان [...] ويحدث "النَّاء" بأن يوضع طرف اللسان بين أطراف الثنايا، بحيث يكون هناك منفذ ضيق للهواء ويكون معظم جسم اللسان مستويا، برفع الحنك اللين فلا ينفذ الهواء عن طريق الأنف، ولا يتذبذب الوتران الصوتيان «(2)، فالفاء والنَّاء يلتقيان في احتباس الهواء في موضع ما، ولا يتذبذب الوتران الصوتيان أثناء النطق بهما، مما يُيسر عملية التبادل بينهما، ولذلك حكم الزمخشري بقوله: «التَّحْنُثْ يؤول إلى التَّحْنُفِ».

وهو ما نقف عليه مع كثير من الناطقين لمثل هذه الكلمات حيث يقف المستمع عاجزا عن تحقيق الفهم الدلالي لمثل هذه الكلمات التي تتبدل أصواتها فيما بينها.

كما فعل شروحاته المجازية بإشارته من باب التعقيب على الكلمة التي أبدلت حروفها بحروف أخرى، وهو ما ذكر في مادة (جَمَمَ) «ومن المجاز: فرس جَمُومٌ الشَّدَّ، قال النَّمْرُ بن تَوَلَّب يصف فرسا:

جَمُومُ الشَّدِّ شَائِلَةٌ الدُّنْيَايِ *** تَخَالُ بَيَاضَ عَرَبِيَّهَا سِرَاجَا
إلى أن قال: وقال:
عَرَضْنَا فُقُلْنَا هَسْلَامٌ عَلَيْكُمْ *** فَأَنْكَرَهَا ضَيْقُ الْمَجَمِّ عِيُورُ

1. محمود السهران، علم اللغة العام، دار النهضة العربية، بيروت، ص 172.
2. محمود السهران، علم اللغة العام، ص 173.

أُبْدَلَ مِنْ أَلِفٍ لَامَ التَّعْرِيفِ هَاءٌ ⁽¹⁾.

إنَّ عملية الإبدال التي تَتِمُّ بين أَلِفٍ لَامَ التعريف والهاء، نندرج ضمن التَّقَارِبِ القائم بين الهمزة والهاء، باعتبار أن الإبدال «يعني إقامة حرف مكان الآخر في بعض الكلمات، مع بقاء الحروف الأخرى، فتكون هذه الكلمات مشتركة في حرفين مثلا وإبدال الحرف الثالث في إحداها بحرف آخر قريبا في المخرج، وقد يكون بعيدا، وهذا الإبدال نلاحظه أيضا في الأمثلة التالية: (غين، خين، قسم، قسم، وسم، وسم، وشم، تاب، تاب، أب، أز، هز، خوم خرب) ⁽²⁾.

وهذا النوع من الإبدال يراد به معالجة ظاهرة نطقية، وهولا يؤثر في الدلالة اللفظية لثبات المعنى، وقد يفيد اللغة في مجال تعدد الألفاظ وتنوعها، وهوما يُفسِّره الدكتور إبراهيم أنيس بالتطور الصوتي حيث يقول: «لانشكُّ لحظة في أنها جميعا نتيجة التطور الصوتي، أي أن الكلمة ذات المعنى الواحد حين تروي لها المعاجم صورتين، أو نطقين ويكون الاختلاف بين الصورتين لا يتجاوز حرفا من حروفها، نستطيع أن نُفسِّرَها على أنَّ إحدى الصورتين هي الأصل، والأخرى فرع لها أوتطور عنها، غير أنَّه في كل حالة يشترط أن نلحظ العلاقة الصوتية بين الحرفين: المبدل والمبدل منه» ⁽³⁾.

ومِمَّا وقفنا عليه من ملاحظات صوتية واردة في معجم أساس البلاغة، نستنتج أنَّ الزمخشري لم يقف على تأملات تحليلية لأصوات الكلمة، وإنَّما بيَّن ما تُصاب به الكلمة من تأثيرات صوتية التي يُمكن أن تُساعد القارئ على التحصيل الدلالي لها، وهوما يعكس سعة ثقافته وإلمامه بخبايا العربية.

ب - المستوى الصرفي:

إنَّ العنصر الصرفي أوما يسمى بالبنية، هوما يعرف عند الأوربيين ب: "morphologies" وهي الوحدات المشكلة للجملة، أوما يعرف بالمورفيم "morpheme" ودورها في تحديد وتوضيح المعنى العام للجملة، فكلَّما كانت بنية هذه الوحدات طيِّعة في يد المتلقي نتج عنها بلوغ الفكرة والمعنى المقصود «ومن طبيعة هذه الدراسة أن تتناول الناحية الشكلية التركيبية للصيغ والموازين الصرفية وعلاقاتها التصريفية من ناحية، والاشتقاقية من ناحية أخرى» ⁽⁴⁾، والزمخشري

1 - الزمخشري، أساس البلاغة، ص 101 و 100.

2 - محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، دار الفكر بيروت، ط 4، 1970 م، ص 87-89.

3 - إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، ص 53.

4 - تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، 1990 م، ص 170.

في أساس البلاغة التفت إلى هذا المستوى في كثير من شروحاته المجازية باعتبارها جزءاً من اللغة، ولها وظيفة في تحديد المعنى وتوضيحه، وهوما ذهب إليه عبد العزيز عتيق في قوله: «علمُ الصرف يبحث في التغيرات التي تلحق بنية الكلمة لغرض معنوي أولفظي، ويراد ببنية الكلمة هيئتها أو صورتها الملحوظة من حيث حركتها وسكونها وعدد حروفها»⁽¹⁾، ففي المدخل المعجمي (بثث) «ومن المجاز: بثثته ما في نفسي أثبته إياه، وبثثته سري وباطن أمري إذا أطلعته عليه»⁽²⁾، وهويبتبع معنى ودلالة اللفظ نجده بالمقابل يسرد جُلَّ تصريفاته أوبعضها: بثثته، أثبته، أبثثته، بثثته وهكذا. .، فورود مثل هذه التصريفات يساعد على معرفة الإسناد الصحيح، ومتى يُدغم الحرفان؟ ومتى يُفككان؟ وما ينجرُّ عنهما من دلالات، «فالبناء الصرفي أوالوزن، مثل القالب الذي يُؤخذ من مادة المعدن جزءاً يحدد أطرافه، ومن هنا تظهر وظيفة البناء الصرفي»⁽³⁾، وقد وقفنا على إشارات صريحة من الزمخشري يؤكد فيها وزن الكلمة المقصودة، إذ تراه يستشهد على ذلك معللاً مثل ما وقفنا عليه في مادة (حبق) «ومن المجاز: ظلوا يحبِقون على فلان إذا سبّوه وجهلوا عليه، وقد تحابقوا عليه، وفلان حبة من قوم حبات بوزن شجرة، وهو السَّفيه الجاهل»⁽⁴⁾، فهو يصرح به قياساً على لفظ شائع، «فحبة وشجرة على وزن فعلة» وتركيزه على تجليته من باب التأكيد، كما نلمس نفس المنحى في اعتماد الميزان الصرفي بناء على القياس، ففي مادة (دهي) «ومن المجاز: هوداهية من الدواهي، إذا كان بصيراً بالأمر منكرًا، ورجل داهٍ ودهيٍّ ودهٍ بوزن شجٍ»⁽⁵⁾.

إنَّ تعرضه للوزن بناء على قياس يأتي به حينما تستدعي الضرورة، وفي الحالات الخاصة بغية تعميم الفائدة، كما نلمس اهتمامه بالحركات في كثير من الشروحات المجازية، ذلك أن بنية الكلمة في كثير من المواقف اللغوية تبقى هي نفسها، إلا أنَّ تغيُّر حركة الثاني يؤدي إلى تغير في الدلالة وهوما أكدّه في مادة (جزل) «ومن المجاز: رجلٌ جَزَلٌ: دُوْعَلٌ ورأي، وإن قيل لك فلانٌ جَزَلٌ الرَّأي فأردت إنكاره فقل: بَلْ جَزَلُ الرَّأي أي: فاسده، من الجَزَل في

1 - عبد العزيز عتيق، مدخل إلى علم الصرف، دار النهضة العربية ط4، 1974م، ص07.

2 - الزمخشري، أساس البلاغة، ص28.

3 - فرحات عياش، الاشتقاق ودوره في نمو اللغة، ص62.

4 - الزمخشري، أساس البلاغة، ص110.

5 - المصدر نفسه، ص200.

الغَارِبِ وهو حُدُوث دَبْرَةٍ فِيهِ تَهْجُمُ عَلَى الْجَوْفِ فَتَهْلِكُهُ»⁽¹⁾، فالملاحظ للبنيتين: «جَزَلٌ وَجَزَلٌ» يرى أن بناءهما واحد متكون من ثلاثة أحرف (ج، ز، ل)، إلا أن معنى الأول قد يُصبح مناقضا للثاني في حالة كسر عينه فقط.

إنَّ تَقَطُّنَ الزمخشري لمثل هذه الظواهر اللغوية وهو يتعرض لدلالة اللفظ يعكس لنا مدى اهتمامه بالجزئيات اللغوية التي قد تُجَوِّزُ المعنى المستهدف وتعكسه، وهذا ما أكده فخر الدين حينما أشار قائلا: «ذلك لأن الحركات في بنية الكلمة، مع أنها تُيسِّرُ النطق، وتمكن من وصل الأحرف في اللفظ، كثيرا ما تكون أيضا لمعان لغوية وصرفية، كالذي تراه في صيغ: فعل وفعل ويفعل ويفعل في المغالبة والتعجب، وفي صيغ المبالغة والمشتقات، وجمع التكسير والتصغير والنسبة، ولولا ذلك لكانت هذه الحركات الداخلية المتباينة غير معينة»⁽²⁾ وإذا كان مفهوم الحركات عند كثير من القراء يعني تيسير النطق من الناحية الصوتية وتمكين المتعلمين من معرفة شكل أصواتها، فإن للحركات معنى في الظواهر اللغوية، إلا أنه لا يترتب عنها دوما الاختلاف، فقد يحدث لنفس البنية تغير في الحركات مع ثبات المعنى وهو ما أورده الزمخشري في عدد من المواد اللغوية منها (حضر) «ومن المجاز: حَضَرَتِ الصلاة، وأَحْضِرَ ذَهْنَكَ، وجاءنا ونحن بِحُضْرَةِ الدَّارِ، وحُضْرَةٍ، وحُضْرَةٍ وحُضْرَةِ الماء: بقربيهما»⁽³⁾.

وهو حينما يتعرض لمثل هذه الظواهر لا يناقشها منفردة كصيغة صرفية محضة، وإنما يعرضها من باب أثرها في تغيير الدلالة، أو ثباتها ضمن جملة أو قول مأثور.

ومن المصطلحات الصرفية الواردة في شرح المجاز ذكره للمصدر، وتصريحه به باعتبار أن المصدر يُسهم في تحديد الدلالة ومن المواد التي احتوته (خدج) «ومن المجاز: خدج الرجل فهو خادج إذا نقص عضومنه، وأَخْدَجَهُ الله فهو مُخْدَجٌ... وصلاته مُخْدَجَةٌ وخادجةٌ وخَدَّاجٌ وصقًا بالمصدر»⁽⁴⁾، فالذي أراده الزمخشري بهذه الالتفاتة، هو بيان أثر بناء الكلمة في تنوع دلالتها.

1 - الزمخشري، أساس البلاغة، ص 92.

2 - فخر الدين قباوة، مشكلات العامل النحوي ونظرية الاقتضاء، دار الفكر، دمشق ط 1، 2003 م، ص 86.

3 - الزمخشري، أساس البلاغة، ص 130.

4 - الزمخشري، أساس البلاغة، ص 154.

كما نجد ذلك متجلياً في مادة دسم: «ومن المجاز [...] وهي مصدر الأدسم كالحمره ونحوها»⁽¹⁾، إن تعقيبه على دلالة الألفاظ تارة بما يتصل ببنائها وتسميتها باسمها في شرح المجاز يعكس قناعته بأثر البنية في تحديد وضبط معناها على بنية أخرى. ثم يواصل حديثه معزراً كلامه بشواهد وأمثلة وهو ما وقفنا عليه في مادة (دوي):

«ومن المجاز [...] وَرَجُلٌ دَوَى: أحمق، سُمِّيَ بِمَصْدَرِ دَوَى وَحَقَّ لَهُ»⁽²⁾، وهو في هذه الأمثلة يُصرِّح به كمصطلح مع تعيينه، والذي يمكن قراءته أنه لم يستهل به في شرحه وإنما يؤخره بعد الشرح، ويعتمده من باب التوسيع في الدلالة، مع دعمه بالقياس في كثير من اشتقاقاته، وما التفت إليه الزمخشري في مادة (حشر) «ومن المجاز: [...] الحِيمُ مَضْمُومَةٌ إِلَى حُرُوفِ الْحَشْرِ، فَرُكِبَ مِنْهَا رِبَاعِيٌّ، وَقِيلَ الْحَشْرُ [...]»⁽³⁾ يجسد عمله بنظرية الأصول الثلاثية المشتركة في المعنى العام مع التمييز النسبي والخاص في حالة الزيادة، كما أنه يعكس ظاهرة أثر الحرف في تغير المعنى، وهو ما تعرض له تمام حسان في قوله: «وهناك طائفة من الأفعال في اللغة العربية تعتبر رباعية أصلية الحروف الأربعة في نظر الصّرفيين ولكننا نرى أن أحدَ هذه الحروف مزيدة حتى ولو لم تكن من حروف» سألتمونيها «ومثال ذلك:

دحرج	درج	بعثر	بثر
سقلب	قلب	عربد	عرد
شقلب	قلب	زغرد	غرد

فأنت ترى أن الفعل الرباعي ذومادة ثلاثية، إما أن يستعمل كفعل ثلاثي له نفس معنى الفعل الرباعي، وإما أن نُسْتَعْمَلَ منها صيغاً أخرى تدور حول نفس المعنى»⁽⁴⁾، مما يجسد النظرة العلمية للزمخشري في تعامله مع العناصر اللغوية، والذي بدوره يؤثّر في التوسع الدلالي لمعنى اللفظ العام.

ت - المستوى النحوي:

إن استقامة الكلام، وبلوغه درجة البلاغة تتحكم فيه جوانب ومستويات، منها النحوي فكلما استقامت الجملة نحويًا تجلّت دلالتها

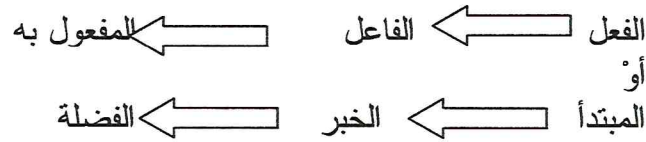
1 - المصدر نفسه، ص 188.

2 - المصدر نفسه، ص 199.

3 - المصدر نفسه، ص 127.

4 - تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص 185.

ومعناها، إنَّ استقامة الأداء اللَّفْظي، وبناءه بناءً مُنتظماً وفق هيكلية ترتكز على أسس بديهية، سلفية أوقاعية مستتبطة، يُيسَّر على الطرف المتلقي فهم الرسالة وكثيرة هي المواقف الخطابية أو الكتابية الغامضة، ويرجع ذلك إلى خلل في الدلالة التي تكتسبها الجملة، أو الجمل عن طريق القواعد النحوية القاضية بترتيب الألفاظ وفق ترتيب المعنى المراد، فترتيب الكلمات والعبارات محكوم بقواعد ونظم تختلف من لغة إلى أخرى، فإذا تغير ترتيب الألفاظ، ولم توجد قرينة تُغيِّر المعنى، فإذا قلنا مثلاً:-(رصد علماء العربية القدامى الكثير من الظواهر الدلالية) فهذه جملة لها معنى خاص، فإذا تغيَّر ترتيب الكلمات فيها فقلنا:-(علماء رصد العربية للقدامى الدلالية من الكثير من الظواهر) «أدَّى ذلك إلى فساد المعنى، ولذا يشترط علماء النحو أن يجري ترتيب الكلمات بحسب ما رسموه من قواعد، فلا يُخلُّ المتكلم بشيء منها حتى لا يؤدي إلى غموض عباراته أو فساد تراكيبه»⁽¹⁾، فإذا كانت طبيعية الجمل مركبة من:



والزمخشري في شروحاته المجازية خدم هذا الاتجاه من خلال استناده لبليغ القول وانتقائه إيَّاه كنموذج دلالي في مستويات جَمَّة منها المستوى النَّحوي، ومنه على سبيل التمثيل ما جاء في مادة (ذلل) «ومن المجاز: «الذَّالُّ على الخير كفاعله» ودلَّه على الصراط المستقيم، ولي على هذا دلائل، وتناصررت أدلة العقل، وأدلة السمع واستدل به عليه، وقبلوا هدى الله ودليلاه»⁽²⁾.

وإذا كان هدفه من المعجم جمع العبارات والتراكيب الدالة والسليمة، فإن الدلالة النَّحوية خدمت مقصده كغيرها من الدلالات لاعتبارات منها: أن مجموع الأقوال والشواهد الواردة فيه تمثل أحسن ما قيل كما أن انتقائه لها أخذ فيه بعين الاعتبار مبدأ الاختيار المبني على الأسس النحوية كذلك.

1 - محمد علي عبد الكريم الرديني، فصول في علم اللغة العام، ط1، عالم الكتب لبنان 1423 هـ - 2002 م، ص 254.

2 - الزمخشري، أساس البلاغة، ص 193.

إنَّ اعتماد الترتيب والمواقع الأصلية للجمل له دلالة خاصة، وكلما حورنا فيه نتجت عنه دلالات جديدة، ثم إن ترتيب اللفظ المستهدف بالشرح المجازي وتنوع مواقعه من جملة إلى أخرى يفضي إلى تنوع الدلالة ففي مادة (ذيع) «ومن المجاز: تركت متاعي بمكان كذا، فأذاع به الناس: ذهبوا به، أذاعوا بما في الحوض من ماء: شربوه كله. ذاع الجور: انتشر. ذاع في جلده الجرب»⁽¹⁾.

إنَّ الملاحظ لترتيب المدخل المعجمي "أذاع" يرى أنه أخذ مواقع متنوعة، فجاء بعد الاستئناف في الجملة الأولى، وفي الجملة الثانية والثالثة والرابعة افتتح به الجملة، إلا أن صيغته في الثانية تختلف عن الثالثة والرابعة ممَّا نتج عنه تغيير الدلالة.

كما نلمس في بعض شروحاته المجازية إشارات نحوية لما لها من تأثير في تحديد المعنى، ففي مادة (بني) «ومن المجاز: بني على أهله: دخل عليها وأصله أنَّ المَعْرَس كان يبني على أهله خباء. ووقعت بنات السحابة بأرضهم، وهي البردُ ؛ وقال:

كَأَنَّ ثَنَائِيهَا بَنَاتُ سَحَابَةٍ *** سَقَاهُنَّ شَوْبُوبٌ مِنَ الْغَيْثِ بَاكِرٌ

هُنَّ هُوَالْمَفْعُولُ الثَّانِي»⁽²⁾، فتعقبيه على البيت بما هونحوي في المجال الدلالي يثبت للقارئ قناعة الزمخشري، وإيمانه بأثر التأويل النحوي في تحقيق الدلالة، وهي النظرة التي أصبحت تعتمدها اللسانيات الحديثة باعتبار أن الوظيفة النحوية تعني «العلاقة التي تربط مكوّنًا من مكوّنات الجملة بمكوّنات أخرى في نفس الجملة»⁽³⁾، وكلما كانت العلاقة محكمة بين العناصر اللسانية للجملة ساعدت على تحقيق الدلالة، والإبانة، وهوما عبّر عنه الزمخشري في مادة (درج) «ومن المجاز: لفلان درجة رفيعة، وامش في مدرج الحق، وعليك بالنحو، فإنه مدرجة البيان»⁽⁴⁾.

إنَّ الذي يمكن أن نستخلصه من خلال وقفنا مع معجم أساس البلاغة للزمخشري، وهويتعريض لبيان دلالة الألفاظ وشرحها ما كان له أن يستغني بين الحين والآخر عن إقحام المستويات اللغوية لاعتبار واحد، وهوأنَّ بعض المداخل المعجمية تتضح دلالتها أكثر حينما يلتفت إليها من النواحي الصوتية أو الصرفية أو النحوية الأمر الذي أصبحت المدرسة اللسانية الحديثة تدعوإليه.

1 - الزمخشري، أساس البلاغة، ص 211.

2 - المصدر نفسه، ص 52.

3 - سامي عياد حنا، وآخرون معجم اللسانيات الحديثة، مكتبة لبنان ناشرون 1997م، ص 56.

4 - الزمخشري، أساس البلاغة، ص 18.

مصادر الدراسة ومراجعها:

- القرآن الكريم (رواية ورش).
- الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر، أساس البلاغة، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة بيروت 1385هـ/1956م.
- إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ط5، مكتبة الأنجلو المصرية 1979م.
- تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، 1990 م.
- حكمت كشلي فواز، القاموس المحيط للفيروز أبادي، دراسة وتحليل ونقد، دار الكتب العلمية، بيروت ط1، 1996 م.
- محمد المبارك، فقه اللغة وخصائصه العربية، دار الفكر بيروت، ط4، 1970 م.
- محمد علي عبد الكريم الرديني، فصول في علم اللغة العام، ط1، عالم الكتب لبنان، 1423 هـ - 2002 م.
- محمود السعران، علم اللغة العام، دار النهضة العربية، بيروت .
- عبد العزيز عتيق، مدخل إلى علم الصرف، دار النهضة العربية، ط4، 1974 م.
- فخر الدين قباوة، مشكلة العامل النحوي ونظرية الاقتضاء، دار الفكر، دمشق ط2003، 1 م - فراحات عياش، الاشتقاق ودوره في نمو اللغة، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1995 م.
- سامي عياد حنا وآخرون، معجم اللسانيات الحديثة، مكتبة لبنان ناشرون 1997 م.